الفصل السابع

الإسلام.. ومكانة المرأة الاجتماعية

obeikandi.com

obeikandl.com

الإسلام .. ومكانة المرأة الإجتماعية

كما سبق القول في مدخل هذا الكتاب فإن البشرية لم تعرف دينا ارتفع بمكانة المرأة كما فعل الدين الإسلامي العظيم ، ولقد تبوأت المرأة مكانا ساميا في ظل تعاليم الدين الإسلامي العظيم ، والتي أيدتها ودعمتها ممارسات النبي المعلم ، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

يقول الشيخ محمد الغزالي ، رحمه الله ، إن الذي لا شك فيه أن الإسلام يتضمن أصولا تكفل للنساء أفضل ما يعشن به وافرات كريمات . ولو رجعنا البصر في أحوال المرأة المسلمة قبل ألف سنة لرأيناها استمتعت بميزات مادية وأدبية لم تعرفها النساء في القارات الخمس(!!) . ونحن نؤكد أن هذه المرأة قبل ألف سنة كانت أشرف نفسا ، وأربى حظا ، وأزكى وضعا من زميلتها الآن في الغرب [1] .

هذا وسوف نتناول ، خلال الصفحات التالية ، عددا من الصفات المميزة التي ربيت عليها المرأة المسلمة ، فرفعت مكانتها ، وأعلت من شأنها ، بحيث أصبحت نموذجا لبنات جنسها ، ولم يكن ذلك إلا بسبب تربية الرسول صلى الله عليه وسلم لها ، وسوف تكون أمثلتنا وكثير من النماذج التي نتحدث عنها من زوجات الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لأنهن هن اللاتي تلقين دروس التربية الإسلامية الأولى على يد المعلم الأسمى ، صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم انتقل أثر التربية منهن ، رضى الله عنهن جميعا ، إلى غيرهن من نساء المسلمين .

ولا يمنع من ذلك أننا سنشير من حين إلى آخر إلى بعض ، وربما كثير، من نساء المسلمين ، من غير زوجات المصطفى ، صلى الله عليه وسلم .

---

(١) محمد الغزالي : الإسلام والطاقات المعطلة، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٣، ١٩٦٤، ص ١٤٠ .

أولا :

التربية النبوية حولتهن إلى أكرم الكريمات :

إذ من المعروف أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كان أجود من الريح المرسلة ، وأنه كان أجود ما يكون في شهر رمضان ، وما كان يبقى عنده شيئاً مما كان يصل إليه من الفيء أو غيره ، وإنما كان يوزعه على من حوله من فقراء المسلمين ، ومن المؤلفة قلوبهم حتى ينتهى منه جميعا ، دون أن يبقي لنفسه أو لآل بيته شيئاً .

ولقد كانت أولى أمهات المؤمنين كرما السيدة خديجة ، رضى الله عنها ، والتي احتلت بذلك مكانا مرموقا بينهن ، ولقد احتلت أم المؤمنين خديجة منزلة ومكانة ما تبوأتها زوجة من أزواج الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، حتى إن السيدة عائشة ، رضى الله عنها كانت تغار منها ، حتى بعد موتها بسنوات . . !!

سألته ، صلى الله عليه وسلم ، مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدَّلك الله خيرا منها . . ؟ فأسكتها قائلا : والله ما أبدلني الله خيرا منها ، آمنت بي حين كذبني الناس ، وواستني بمالها حين حرمني الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها[1] .

ويقول الإبراشي ، قيل : بعث معاوية بن أبي سفيان إلى السيدة عائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنها ، ثمانين ومائة ألف درهم ، فطلبت طبقا كبيراً وأخذت تقسم المال بين الناس حتى قسمته كله على الفقراء ، فلما جاء المساء قالت لخادمتها : هاتي فطوري ، وكانت صائمة في ذلك اليوم ، فجاءتها الخادمة بخبز وزيت لتفطر عليهما في صيامها فقالت لها : ألم تستطيعي مما تبرعت به اليوم أن تشتري لنا بدرهم واحد لحما نفطر عليه . . . ؟ فقالت السيدة عائشة : لو كنت ذكرتني لفعلت[2] . !!

(١) عباس محمود العقاد : الصديقة بنت الصديق ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١٢ ، ١٩٨٨م ، ص ٢٦ .
(٢) محمد عطية الإبراشي : روح الإسلام ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م ، ص ٤٥ .

ويصف العقاد كرمها فيقول بأنها كانت فيه إلى النجدة أقرب منها إلى السخاء، وهي فيه علي آسال من أبيها العظيم ، رضي الله عنه ، تنقذ من الأسر ، وتغيث من البلاء ، وتعطي من هو في حاجة إلى العون العاجل ماتيسر لها العطاء ، وكانت في كرمها على حال سواء في أيام النبي عليه السلام حين لا مال لديها إلا القليل الذي هي أحوج إليه ، أوفى أيام الفتوح التي تيسر لها فيها من المال ما لم يكن قبل بميسور .(١)

ويصل العقاد ، رحمه الله ، إلى لب القضية التي نحن بصددها ، والتي هي التغير ، وانتقال أثر التربية من المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، إلى كل من حوله من صحابته ، وبطبيعة الحال فإن أزواجه كن أول الناس تأثرا به ، وأكثرهم التزاما بأخلاقياته التي كن يعايشنها يوميا . يقول الرجل « وقد أعانها، يقصد السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، على هذا الخلق أنها رزقت القدوة القريبة من سيد المواسين للضعفاء ، ومعلم الجابرين لكسر القلوب .(٢) ويحكي لنا الكاتب قصة قريبة الشبه جداً من قصة إنفاقها ما أرسله لها معاوية ، ولكن في هذه المرة جاءتها الأموال من الزبير بن العوام (مائة ألف درهم) أنفقتها جميعا على الفقراء ، وقال سعد عن عروة بن الزبير : رأيت عائشة تتصدق بسبعين ألفا .(٣)

وكانت أعظم خريجات مدرسة الإسلام العظمى ، السيدة عائشة رضي الله عنها، زاهدة في أمور الدنيا وما فيها، ويقول طهماز « يستدعي الزهد خلو القلب مما خلت منه اليد» ، وكانت السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، خالية القلب مما في يدها . وبلغت بهذا أعلى درجات الجود والسخاء ، فكل ما كان يصل إلى يدها

(١) عباس محمود العقاد، الصديقة بنت الصديق ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص ص ٣٦ - ٣٧ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٧ .

تتصدق به ، سواء كان قليلاً أو كثيراً ، تطبيقا لما سمعت من النبي ، صلى الله عليه وسلم ، : « اتقوا النار ولو بشق تمره » . (رواه البخاري)[1] .

وأكثر من ذلك أنها لم تكن كريمة فحسب ، بل إنها كانت تؤثر السائل على نفسها ، حتي بما سوف تفطر عليه في صومها ، أخرج مالك في الموطأ أنه بلغه عن عائشة زوج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، رضى الله عنها ، أن مسكينا سألها وهي صائمة ، وليس في بيتها إلا رغيف ، فقالت لمولاة لها : أعطيه إياه ، فقالت ففعلت ، فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت – أو إنسان – ما كان يهدي إلينا ، شاة وكفنها – أي ما يغطيها من الخبز – فدعتني عائشة ، رضي الله عنها ، فقالت كلي من هذا . . ! هذا خير من قرصك .[2]

وتكفي هذه النماذج من كرم السيدة خديجة ، رضي الله عنها ، التي ما ضنت بمالها على رسول الله الكريم ، صلي الله عليه وسلم ، وفي أيام البعثة الأولى ، ومن كرم السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، من أيام معيشتها عيشة الكفاف في حياة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد وفاته كانت تتصدق بكل ما يصل إلى يدها حتى إنها تصدقت في جلسة واحدة بمائة ألف درهم ، وقيل بمائتي ألف أرسلها لها معاوية في أواخر حياتها عندما فكر في شراء بيتها ليضم إلى مسجد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وقال لها : أنت أولى بالشفعة ، وشرط لها سكناها حياتها ، فما راحت من مجلسها حتى قسَمت المال كله ، رضى الله عنها . (٩) أقول تكفي هذه النماذج لكي تبين لنا المكانة الرائعة التي وصلت إليها المرأة في الإسلام ، ولم يكن ذلك ليحدث ، أو ليتم لولا التربية الإسلامية الرائعة ، في مدرسة الإسلام العظمى التي أنزل منهجها من فوق سبع سموات ، ورعاها خير معلم على ظهر الأرض ، صلى الله عليه وسلم .

(١) عبد الحميد طهماز : السيدة عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام ، دار العلم ، دمشق ، ط٤ ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م ، ص ١٦٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

ثانيا:

بالإسلام .. ارتفعت مكانتهن الإجتماعية بين الرجال :

لقد سبق وبينا في بعض صفحات هذا الكتاب كيف كانت مكانة المرأة هابطة ومتدنية قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، على وجه العموم ، ولكن بمجيء الإسلام ، وبظهوره وانتشاره بين العرب تغيرت مكانة المرأة في مجتمع المسلمين ، ولم تعد المرأة متاعا يورث ، أو سلعة تنتقل من رجل إلى آخر ، أو من قبيلة إلى أخرى ، خاصة وأن الإسلام العظيم قد فرض لهن حقوقا ثابتة عند الزواج ، وأثناء معيشتهن مع أزواجهن ، وعند الطلاق ، وكذلك عند وفاة الأزواج ، فقد أصبحن يرثن نصيبا معلوما ومفروضا من قبل الله عز وجل .

إن كل هذه الحقوق الشرعية ، بالإضافة لحقوق الحب والرعاية والحنان والعطف والمودة التي ضرب فيها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أروع الأمثلة في حياته مع زوجاته أمهات المؤمنين ، وفيما أمر به أصحابه الكرام ، رضوان الله عليهم أجمعين . . . كل ذلك رفع مكانة المرأة عاليا ، كما لم يحدث من قبل في تاريخ البشرية ، ولعل الشرح من خلال النقاط الآتية يوضح مانقصد :

وبالوالدين إحسانا :

نزلت الآية الكريمة : «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً»(الإسراء / ٢٣) . فينصاع المسلمون فوراً لتنفيذ أمر الله عز وجل ، والذي جعل الإحسان إلى الوالدين ، دون التفرقة بين الوالد والوالدة ، أمراً تنفيذه واجب شرعاً ، بل هو مرادف لعبادته عز وجل . وقد أكد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على الإحسان للأم - بالتحديد - ومصاحبتها بالمعروف . وروى أبو هريرة ، رضى الله عنه ، أن رجلا قال : يا رسول الله من أبر . . ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟

قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أباك » . (رواه الترمذي)[1]

مبايعات للنبي :

كذلك فإن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قد أخذ البيعة من النساء أنفسهن ، تعزيزاً لمكانتهن في الإسلام ، وهو في نفس الوقت مؤشر دال لا يخطئ على مسؤوليتهن المباشرة عن أنفسهن في مزاولة أمور دينهن . ولقد كانت تلك البيعة بيعة النساء – بأمر مباشر من الله عز وجل ، وبنص صريح : « **يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن ، واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم** » (الممتحنة/ ١٢) .

وقد نزلت هذه الآية يوم فتح مكة ، وبايع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بها النساء على الصفا ، بعد ما فرغ من بيعة الرجال على الإسلام والجهاد ، وكان عمر بن الخطاب يبلغه عنهن ، وهو واقف أسفل منه .[2]

ثم إن الإسلام ، من خلال تشريعاته الرائعة الخاصة بالمرأة قد رفع مكانتها وأعلى قدرها ، أمام نفسها ، وفي أعين باقي أفراد المجتمع ، وذلك حين أقر لها بالآتي :

تختار الزوج :

أعطاها حق الإختيار بالنسبة للزوج ، وبنص الحديث النبوي الشريف : « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن في نفسها ، وإذنها صمتها » رواه مسلم ومالك في الموطأ ، والترمذي والنسائي وأبو داود . والنسائي عن أبي هريرة ،

---

(١) كوثر محمد المنياوي : حقوق المرأة في الإسلام .

(٢) محمد رشيد رضا ، مرجع سابق، ص ١٤ .

رضي الله عنه .

وعن ابن عباس ، رضي الله عنهما أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « الأيم أحق بنفسها من وليها . والبكر تستأذن في نفسها ، وإذنها صمتها » رواه مسلم ومالك في الموطأ ، والترمذي والنسائي وأبو داود .

ولا شك أن إعطاء المرأة هذا الحق قصد به خير المرأة والرجل معاً ، وكذلك خير المجتمع ، لأن الأسر فيه سوف تقوم على المحبة والمودة ، لا على القسوة والقهر[1] ومن جانب آخر – وهو ما يهمنا هنا – أنه رفع مكانة المرأة اجتماعيا لأنه أعلن للجميع أن المرأة أهل للثقة في إدارة شؤون أمرها ، وأنها ، في موضوع زواجها لا تخضع لأهواء الآخرين ، وأصبح الرجل الذي ينوي خطبة امرأة معينة عليه أن يفكر جيداً في رأيها هي ، وليس فقط رأيه هو ووليها . نتيجة للحق السابق في اختيار الزوج ، وعدم فرضه عليها ، بغض النظر عن رأيها أو عن مشاعرها ، ومن هنا وثقت المرأة في نفسها ، خاصة وقد وثقت قبل ذلك من عدالة الشرع ، ومن تطبيق الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لأوامر الله عز وجل . وقد روى أن « خنساء بنت جذام » زوجها أبوها وهي كارهة ، وكانت ثيبا ، فأتت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فرد زواجها[2] .

وترد النكاح:-

وترتفع مكانة المرأة حتى لترد على أبيها نكاحه ، لأنها لم تأذن ، فتذهب إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وتقول : إن أبي أراد أن ينكحني إلى ابن أخيه ليرفع بي خسيسته . . فيرد الرسولُ الأمر إليها ، فتقول إنها قد رضيت ، وأنها قد

(١) محمد بن سعد الشويعر: حماية الإسلام للمرأة، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، ص ، ٢٢

(٢) البهي الخولي، مرجع سابق، ص ٢٧ .

فعلت ذلك ليعلم الآباء (!!) أنه ليس لهم أن يجبروها على الزواج (أخرجه أبو داود وأحمد والنسائي وابن ماجة)[1].

الرسول، صلى الله عليه وسلم قدوتهن :

كان من نتيجة تربية الرسول لصحابته ، صلى الله عليه وسلم ، أنهم أصبحوا يقتدون به في كل أمر ، بل وصاروا يترسمون خطاه ، وقد اشتهر منهم نفر كانوا يحاولون الاقتداء به في كل صغيرة وكبيرة ، وكان على رأسهم عبد الله بن عمر ، الصحابي المقتدي، رضي الله عنه .[2]

ولقد كانت النساء المسلمات يعرفن كيف كان ،صلى الله عليه وسلم ، يعامل أزواجه ، وكان بعض الرجال إذا حاول إنكار معارضة زوجته له ، أعادته إلى سيرة المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، فيذعن فوراً .

وما أطرف حديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يقص فيه ما جرى له معهن ، ويصف هزيمته (!!) وكيف انكسر لهن ، على رغم شدته وغلظته (!!) قال :

« والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم ، فبينما أنا في أمر أتمره إذ قالت لي أمرأتي : « لو صنعت كذا وكذا » فقلت لها : ومالك أنت وأنا هنا » ؟ وما تكلفك في أمر أريده؟ فقالت لي : « عجبا لك يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تراجع أنت ، وإن ابنتك (تعنى السيدة حفصة بنت عمر أم المؤمنين) لتراجع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حتى يظل يومه غضبانا ؟؟ فأخذت ردائي - يقول عمر - ثم أخرج من مكاني حتى أدخل على

(١) محمد علي البار، مرجع سابق، ص ٢٦ .

(٢) محمد بن عبد الله الشباني: المجتمع الإسلامي الأول - ظاهرة تكوين من خلال السنة النبوية، عالم الكتب، الرياض، ١٤٠٩هـ - ص ص ٢١٤ - ٢١٧ .

حفصـة فقلت لها : « أي بنية إنـك لتراجعين رسول اللـه حتى يظل يـومـه غضبانـا ؟ فقالت حفصة : « واللـه إنا لنراجعه» فقلت تعلمين أني أحذرك عقـوبة الله وغضب رسوله . . » ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمـة » لقرابتي منها فكلمتها فقالت لي : « عجبـا لك ياابـن الخطاب ، قـد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تـدخل بين رسول الله وأزواجـه . . ؟؟»!! فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعـض ما كنت أجد ، فخرجت من عندها . (١)

ناصحة للرجل :

أعطى المعلم القدوة ، صلى الله عليه وسلم ، المرأة الحق في أن تصبح ناصحة للرجـل ، ومستشارة أمينـة ، مما مكن لها مكـانتها الجديدة التـي تبوأتها بـالإسلام ، وأصبحت بعد ذلك مثلا لبنات جنسها من المسلمات المؤمنات .

يـدخل رسول اللـه ، صلى الله عليـه وسلم ، على زوجه « أم سلمـة » مطرقـا مهتما بعـد أن عقـد صلح الحديبيـة وأمـر المسلمين أن يتحللـوا من إحـرامهم فلم يمتثلوا، ظنـا منهم أن ذلك الصلح كان غبنا شـديداً عليهم ، وذلك لـرجوعهم من غير حج ، وإعادة من هاجر إليهم من المكيين ، ولا يـرد المكيون من هاجر إليهم من المسلمين .

قالت : ما خطبك يا رسول الله . . . ؟

قـال : هلك المسلمـون يـاأم سلمة ، أمـرتهم أن ينحـروا ويحلقـوا ويتحللـوا فلم يمتثلوا قـالت : أعذرهم يا رسـول الله ، فقـد حمّلت نفسك أمرا عظيما في الصلح ، ورجعوا دون فتح ولا حج ، فهم لذلك مكـروبون ، والرأي : أن تخرج ولا تلوي على أحـد ، فتنحر وتحلق ، فإذا رأوك فعلت تبعـوك ، فـانشرح صدر النبي ، صلى اللـه عليه وسلم ، وأطمأن قلبه إلى ذلك الرأي السديد ، وقام من فوره ، وخرج إلى الناس

(١) سعيد الأفغاني ، مرجع سابق، ص ص ٤٨-٤٩ .

يقول :

« أما مـا أهمكم من العهد ، فإن من ذهب إليهم فـلا حاجة لنـا به ، ومن جـاءنا فسيجعل اللـه له فرجـا . وأما البيت فـإنكم إن شاء اللـه مطوفـون به في قابـل . وما فعلت ما فعلت عن أمري ، وإنما عن أمر الله ، وهو ناصري ولن يضيعني» . .

ثم دعا الحلاق فحلق ، وعمد إلى البـدن فنحر ، وتحلل من الاعتمار ، وصدق رأي « أم سلمة » ، رضي الله عنها ، فلم يكد المسلمـون يرون النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يحلق ويـذبح حتى تـواثبـوا إلى الهدي فنحروا ، وإلى الـرؤوس فحلقـوا ، ثم رجعوا إلى المدينة مؤمنين بحكمة ربهم ، لم يمسسهم سوء ، ولم يصابوا بأذى .(١)

وتقـدمت المرأة ، وارتفعت درجات في سلم مكـانتهـا العظيمة التي أولاهـا لها الإسلام ، وتغيرت - على وجه اليقين - النظـرة إليها في شبه جزيـرة العرب ، وبطبيعة الحال فإن التغير في المكانـة هو الـذي أتى أولا ، وما جـاء التغير في المكانـة إلا بتربية الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فالتربية هنا - في المجتمع المسلم - هي التي قادت التغير ، وليس العكس * .

لعل أول مكـانة اكتسبتهـا المرأة في الإسـلام جاءت على يـد السيدة خـديجة ، رضي اللـه عنهـا ، لأنها شرفـت بنـات جنسهـا كلهن حين آمنت بـدعـوة الإسـلام ودخلت فيهـا علي يـد رسـول اللـه ، صلى اللـه عليـه وسلم ، دون أن تتردد لحظـة واحـدة ، حتى أطلق عليها « صـدِّيقـة النساء » مقـابلـة لها مع أبي بكر ، رضي اللـه عنه ، والـذي كان أول من آمن من الـرجال ، وصـدق نبي الخلق أجمعين ، صلى الله عليه وسلم .

(١) إبراهيم علي النشار : الإسلام والمرأة ، عـالم الكتب ، بيروت ، ط٥ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، ص ص ٣٢-٣٣ .

★ يمكن لمن أراد التأكـد من ذلك أن يعـود للفصل النظـري الذي كتبنـاه عن «التغير والتربيـة» ، وعن العلاقة بينهما في صفحات سابقة من هذا الكتاب .

هـذا وكانت ، رضي اللـه عنها ، تحتل مكـانـة لم تحتلها امـرأة في حياة رسـول الله ، صلى الله عليـه وسلم ، يقول عنها الشيخ الغـزالي ، رحمه الله ، إن « خديجة» من نعم الله الجليلة على «محمد» عليه الصـلاة والسلام ، فقد آزرته في أحرج الأوقات ، وأعانته على إبـلاغ رسالته ، وشاركتـه مغارم الجهاد المر ، وواسته بنفسهـا ومالها ، وإنك لتحس قدر هذه النعمة عندما تعلم أن من زوجات الأنبياء من خنّ الرسالة ، وكفرن برجالهن ، وكن مع المشركين من قومهن وآلهنّ حربا على الله ورسوله .

« ضرب الله مثـلا للذين كفروا امرأة نـوح وامرأة لوط ، كانتـا تحت عبدين من عبادنـا صالحين فخـانتاهما ، فلم يغنيـا عنهما من الله شيئـا ، وقيل ادخلا النـار مع الداخلين » . (التحريم / ١٠) .

أما خـديجة فهي "صدِّيقة النساء" ، حنـت على رجلها ساعة قلقـه ، وكانت نسمة سـلام وبر ، رطبت جبينـه المتصبب من آثار الـوحي ، وبقيت قرابـة ربع قرن معه تحترم – قبل الـرسالـة – تأمله وعزلتـه وشمائله ، وتحملت – بعد الـرسالـة – كيد الخصـوم ، وآلام الحصار ، ومتـاعب الدعـوة ، ومـاتت والرسـول . صلى الله عليـه وسلم ، في الخمسين من عمـره ، وهي تجاوزت الخامسـة والستين ، وقـد أخلص لذكراها طول حياته .[1]

وكانت خديجة ، رضي الله عنها أول من آمن به ، صلى الله عليه وسلم ، وبما جـاء من عنـد اللـه ، ووقفت إلى جنبـه تـؤازره وتثبتـه وتخفف عنـه وتهون عليـه أمـر النـاس ، حتى إنه قـال : أمـرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيـه ولا نصب » .

---

(١) محمد الغـزالي : فقه السيرة ، دار الدعـوة للطبع والنشر والتوزيع ، الإسكندريـة ، ط٢ ، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م ، ط١٤٣ .

وضمن المكانة السامية التي تبوأتها أم المؤمنين « خديجة» ، رضي الله عنها ، أنها كانت أول من تعلّم الوضوء والصلاة على يد المعلم الأسمى ، صلى الله عليه وسلم ، ثم عرّفها مواقيت الصلاة آنذاك ، فكانت أول من أدى الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

نتيجة للمكانة الإجتماعية الجديدة التي اكتسبتها المرأة المسلمة في مجتمع المسلمين الجديد ، وقد رأيناها في عدة نماذج وقد اكتسبت ثقة في نفسها شديدة وجدناها لا تخاف أحدا ، بل وتجابه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، طالما كان الحق معها ، ولقد انتقلت هذه الخاصية في الأجيال التالية من نساء المسلمين حتى وجدنا طائفة منهن تقف في وجه معاوية بن أبي سفيان وتواجهه بكلمة الحق التي اعتقدن فيها ، وكنّ عددا غير قليل لدرجة أن واحدا من الكتاب وضع مؤلفا أعطاه عنوانا يدل على ذلك ، وقد أحصى فيه ست عشر امرأة مسلمة جابهن معاوية بالحق . [2] ولعلنا نتذكر أن ملكة فرنسا بالانشنكور لطمها الملك على وجهها وأسال الدم من أنفها لأنها تجرأت وتحدثت في حضرته (!!) وما كان منها إلا أن قالت في خضوع وخشوع ومذلة : سيدي إذا كان هذا يرضيك فأعد لطمي ثانية [3] ولمن يريد أن يرى مكانة المرأة المسلمة وشجاعة قولها في الحق فما عليه إلا أن يعود إلى الكتاب الذي ذكرنا آنفا ، ففيه عبرة عند المقارنة ، كما أن فيه طرافة عند القراءة .

وإذا كنا قد ألمحنا - من بعيد - إلى نساء قلن كلمة الحق في موضعه أمام

(١) عبد الصبور شاهين، إصلاح عبد السلام الرفاعي، مرجع سابق، ص ص ٨١-٨٢ .
(٢) أبو أسامة محي الدين عبد الحميد : نساء قلن لمعاوية لا، المشاعل للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٣هـ.
(٣) محمد علي البار، مرجع سابق، ص ص ٢٢- ,٢٣

الحكام والأمراء ، بفضل الدين الجديد الذي علمهن ورباهن ، فإن هناك طائفة منهن اتجهن اتجاها أدبيا ، شعراً ونثرا، فبرعن فيه ، وذاع صيتهن وعم الآفاق ، خاصة وقد كان هذا الأدب محاطا بسياج إسلامي طيب ، وقد تخصص عدد من الباحثين المسلمين في دراسة «أدب المرأة » في الإسلام ، وخرجوا بنتائج طيبة بينت المكانة الطيبة التي احتلتها المرأة المسلمة أديبة وكاتبة وشاعرة خلال الفترات الأولى من الدولة الإسلامية في المدينة ، ومرورا بالعصر الأموي ، وانتهاء بالعصر العباسي ، وهناك عشرات وعشرات من النساء المسلمات اللاتي نبغن في هذا المجال ، وارتفعت مكانتهن الاجتماعية في مجتمع يقدر العلم والأدب الملتزم بسياج الشرع الإسلامي والآداب الإسلامية(١) .

حينما وقع حادث الإفك المعروف ، وانتهي ببراءة السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، من عند الله عز وجل ، من فوق سبع سموات ، وحينما نزلت الآية الكريمة : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولاتقبلوا لهم شهادة أبدا، وأولئك هم الفاسقون» . (النور/ ٤)، وحينما نفذ حكم الجلد في الذين أشاعوا ذلك القول بين المسلمين ، أمسك الناس ألسنتهم عن الخوض في أعراض المسلمات لأن هذا الخوض ، دون دليل شرعي ، يعرض صاحبه للعقوبة المباشرة(٢) ، وهي الجلد ، وليس هذا فحسب ، وإنما هو يعرضه لعقوبة أكثر هولا ، ونقصد بها عقوبة العزل الاجتماعي عن مجتمع المسلمين حين لا تقبل شهادتهم ، وحين يوصمون بأنهم كذابون لا يوثق بكلامهم ، وأنهم يشهدون الزور ، ولعلنا لا زلنا نذكر اللمحة الذكية لمؤرخ الحضارات « ول . ديورانت » والذي

(١) عمر رضا كحالة : المرأة في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، ص ١٩٢ .

(٢) وهبي سليمان غاوجي : المرأة المسلمة، دار القلم، دمشق-بيروت، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥، ص٣٢ .

استشهدنا بكتاباته عن الحضارات باتساع العالم ، في الفصل التاريخي من هذه الدراسة ، هذه اللمحة الذكية التي جاءت منه في معرض الحديث عن حادث الإفك هي أنه « قد قل الاتهام بالزنا بعد النهي عنه» ،[1] ومعنى ذلك أن الرجل المسلم قد التزم بما نهاه الله عنه فوراً ، ولم يعد يفكر في تناول أعراض المسلمات بالبساطة التي كانت تحدث قبل نزول ذلك التحريم ، وحتى الإشاعة، مجرد الإشاعة هو محاسب عليه ، ومن هنا وجب حذرهم .

مستشارة فيما نحسن :

حيث رفع الإسلام مكانة المرأة في هذا الجانب بحيث أن رأس الدولة عمر بن الخطاب ، كان يستشيرها في الأمور التي تغلق عليه ، خاصة فيما يخص بنات جنسها، كان يتحسس أحوال المسلمين في المدينة ، كما هي عادته ، في هدوء الليل وسكونه ، وفيما هو يمر بين منازل المسلمين سمع امرأة تقول أبياتا من الشعر فيها شيء من الحنين والشوق لشريك حياتها ، والذي كان غائبا في ميدان الجهاد فلم يتوان عمر ، رضي الله عنه ، عن الذهاب إلى ابنته حفصة ، رضى الله عنها ، ليسألها عن المدة التي يمكن أن تصبر عليها الزوجة على غياب زوجها، ولما جاء ه الجواب ما كان أسرع منه في إرسال كتابه إلى قادة الجيوش بألا يغيب مجاهد مسلم عن بيته أطول من هذه المدة ، وهذا شيء طبيعي في تكوين عمر الذي يهتم بالرعية في كل صغيرة وكبيرة ، والذي أحسن استشارة من تفهم في هذه الأمور ، ولا حرج ، طالما أن الأمر يتعلق بصالح المسلمين .

(١) ول . ديورانت ، قصة الحضارة . . عهد الإيمان، مرجع سابق، ص ٦٣,

وارتفعت مكانتها لدرجة أن تجير الرجال :

ونظام الإجارة هذا كان معروفا قبل الإسلام حيث يدخل الرجل ، أو الرجال ، في جوار إحدى القبائل القوية ، أو أحد الأشخاص الأقوياء ، ويعلن ذلك للملأ حتى يعرف الناس جميعا من دخل في جوار من ، لأنه تترتب علي ذلك واجبات وتبعات ، وكان من أهم هذه الواجبات أو المسؤوليات أن الذين يدخل في جوارهم يكون عليهم حماية الذين دخلوا في جوارهم ، حتى لو أدى ذلك إلى حمايتهم بقوة السلاح .

وجاء الإسلام العظيم ليعطي المرأة كل الحقوق التي أعطاها للرجال ، وجاءت سنة المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، لتضع ذلك موضع التنفيذ ، ويعبر عن ذلك الأستاذ البهي الخولي ، مبينا أن هذه المكانة التي وصلتها المرأة بالإسلام . لم تقرر في شريعة من الشرائع قديمة ولا حديثة . . . ذلك أن الإسلام جعل لها أي للمرأة – أن تجير ـ أي تحمي ، في الحرب والسلم ، من أرادت من غير المسلمين

وقد جاء في فتح مكة أن أم هانىء بنت أبي طالب – أخت على كرم الله وجه – أجارت رجلاً من المشركين ، فأبي على إلا أن يقتله ، فأسرعت إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يارسول الله ، زعم ابن أبي طالب أنه قاتل رجلا أجرته . وسمّت الرجل ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء . (متفق عليه) .

وقد جاء في ذلك قوله عليه السلام «يد المسلمين على من سواهم ، تتكافأ دماؤهم ، ويجير عليهم أدناهم » . (رواه احمد وابو داود وابن ماجة) « والمسلمون » وصف جامع للرجل والمرأة . . . ودلالة حديث عائشة ، رضي الله عنها . « إن كانت المرأة لتجير على المؤمنين فيجوز » (رواه الترمذي) وقولها « فيجوز» معناه أن

يحترم فعلها في تأمين أو إجارة من تريد ، ولا يخفره أحد أو ينقض»[1].

وواقعة أخرى . . فحين دخل« أبو العاص» على زينب بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ،(وهي زوجته) ، في جنح الليل ، وكان لا يزال مشركا ، وقد نجا من سرية رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وكان مقبلا من الشام في قافلة تجارية فاستجار بزينب ، رضى الله عنها فأجارته ، ولما خرج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لصلاة الصبح فكبر وكبر الناس معه ، صرخت زينب من صفة النساء : أيها الناس ! ! ! إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع ! ! فلما سلم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من الصلاة أقبل على الناس فقال : «أيها الناس ! هل سمعتم ما سمعت ؟! قالو نعم ، قال : « أما والذي نفس محمد بيده ، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم» .[2]

« قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها» :

وهذه من القصص القرآني الرائع التي تبين المنزلة الرائعة ، والمكانة الهائلة التي منحت للمرأة من فوق سبع سموات ، من الله جلت قدرته ، ومناسبة نزول هذه الآية وما تبعها أن امرأة اشتكت إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، وهي خولة بنت ثعلبة . زوجة أوس ابن الصامت ، وقد مر بها عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، ومعه أناس كثيرون فاستوقفته طويلا ووعظته ، وكان مما قالته :

« ياعمر . . ! ! قد كنت تدعى عميرا ، ثم قيل عمر ، ثم قيل لك أمير المؤمنين ، فاتق الله ياعمر ، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب » . .

(١) البهي الخولي، مرجع سابق، ص ص ٢٨-٢٩ .

(٢) عبد الرب نواب الدين : عمل المرأة وموقف الإسلام منه ، الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص ص ٨٧-٨٨ .

وعمر واقف يسمع كلامها ، فقيل له : يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف . . ؟؟ قال والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لازلت إلا للصلاة المكتوبة . أتدرون من هذه العجوز . . ؟ هي خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات . أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمع عمر ؟!!

وقالت عائشة ، رضى الله عنها ، تبارك الذي وسع سمعه كل شيء . . إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفي على بعضه ، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، وهي تقول : يا رسول الله ، أكل شبابي، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك ، فما برحت حتى نزل جبريل ، عليه السلام ، بهذه الآية «**قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ، وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير** » . (المجادلة/ ١)[1] .

ونختم هذا الفصل ، عن مكانة المرأة الاجتماعية في الإسلام بقصة المرأة المسلمة التي أعجب حديثها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وصحابته ، قالت أسماء بنت يزيد الأنصارية » الملقبة(بخطيبة النساء)للنبي، صلى الله عليه وسلم :

« بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، أنا وافدة النساء إليك . إن الله ، عز وجل، بعثك إلى الرجال والنساء كافة ، فآمنا بك وبإلهك ، إنا معشر النساء مجهودات مقصورات ، قواعد بيوتكم ، وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل ، وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمراً أو مجاهداً ،

(١) كمال جودة أبو المعاطي، وظيفة المرأة في نظر الإسلام، دار الهدى للطباعة، القاهرة، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م ، ص ص ٦٨-٦٩ .

حفظناكم في أموالكم ، وغزلنا أثـوابكم ، وربينا أولادكم ، أفنشارككم في هذا الأجر والخير. . . ؟؟

فقال رسـول الله ، صلى الله عليـه وسلم ، لأصحابـه : « هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مقالتها في أمـر دينها » . . ؟ فقالوا : « يارسول اللـه ما ظننا امرأة تهتـدي إلى مثل هذا » . . !! فـالتفت إليها النبي ، صلى اللـه عليه وسلم ، وقـال « أيتهـا المرأة أبلغي من خلفك من النســاء أن حسن تبعل المرأة لـزوجهـا يعـدل ذلك كله» . . !(١) .

ولا نظن أن هنــاك منـزلـة رائعــة ، ومكـانــة سـاميـة وصلـت المرأة إليهـا -بـالإسـلام - أعظم من هذا ، فيكفـي أن يمتدح المعلم الأسمى ، صلى اللـه عليـه وسلم ، مـا قالتـه تلك المرأة المسلمة أمـام أصحابـه ، رضوان اللـه عليهم أجمعين ، وهو، صلى اللـه عليه وسلم ، مـا كان ينطق عن الهوى ، وعلى ذلك فـامتداح مقـالة المرأة المسلمة جاء من فوق سبع سماوات ، أي من عند الله ، عز وجل ، وهذا شرف ما بعده شرف ، ومكانة ما بعدها مكانة .

(١) عبد المعـز خطاب : النبي صلى الله عليـه وسلم والبنات ، دار الاعتصـام ، القاهرة ، بـدون تاريخ ، ص٣٠ .